5

استيعاب الصين للتيبت وإدماجهم

obeikandl.com

obeikandl.com

كما كانت الحالة في بحثنا الأوضاع السابقة، فإننا هنا نناقش مركزين للنزعة المحلية: الواقع المحلي التقليدي والقديم للتيبت، جوهر البوذية التيبتية، والثقافة الديناميكية المتجددة لجمهورية الصين الشعبية القائمة على الإيديولوجية الخاصة بالشيوعية الصينية. إن الغزو الصيني للتيبت الحديثة- كما سنرى- أفضى إلى مرحلة من التجريب؛ لأن السلطات في بكين كانت تبحث عن أكثر الأساليب فاعلية وكفاءة لدمج التيبتيين بالأمة الصينية، وضمن هذه الجهود استفادت الحكومة الصينية من جميع الميزات التي تأتت مع سيطرة البيئة المعلوماتية؛ فمثلًا أصبحت وسائل الإعلام التيبتية امتدادًا لوسائل الإعلام الصينية.

ولسوف نرى أيضًا أن الصينيين أقنعوا أنفسهم، من خلال إعادة تفسير التاريخ، أن التيبت كانت دائمًا جزءًا من الصين، وفي المقابل وجد التيبتيون أن أساليبهم التقليدية في الحياة، وتاريخهم الشفهي والمكتوب، تؤكد كلها أن لديهم ماضيًا مستقلًّا، ومن ثم فإن الاحتلال الصيني للتيبت ليس مجرد صراع للسيطرة على الأرض، بل هو أيضًا صراع لطمس الماضي الثقافي ليكون أساسًا للمقاومة الحالية، ولتحقيق ذلك لم يكن على الحزب الشيوعي الصيني الحفاظ على المعتقد الجماعي المؤيد بين الصينيين فقط، ولكن كان عليه أيضًا أن يعيد صياغة المعتقد الجماعي التيبتي، وقد ارتأوا أن هذا لن يحدث إلا بتدمير الدين التيبتي التقليدي، وإحلال الوفاء الوطني الشديد لأسلوب الحياة الشيوعي الصيني محله.

ترافقت عملية الإبادة الثقافية هذه بأحداث أُعدت للاستهلاك الصيني بالإضافة إلى الاستهلاك التيبتي؛ تمامًا كما كانت حال المستوطنين في مناطق الهنود الأمريكيين الأصليين والجمهور الروسي في علاقته باليهود، ويهود إسرائيل في علاقتهم بالفلسطينيين، إذ يجب أن يخلق الفريق الأقوى المعتقد الجماعي الذي يُظهر ثقافة الضحية على أنها عتيقة ولا تستحق البقاء. كان للدين في الحالات الثلاث السابقة دور داعم مهمٌّ في المعتقد الجماعي للمعتدي، وفي الحالة الصينية، كان تشويه الدين بوصفه أنه إيديولوجيا زائفة، وعقبة أمام التطور، يمثِّل جزءًا مهمًّا من المنطق الشيوعي.

إنها وظيفة النزعة الفطرية المحلية ألا تعرف الغالبية العظمى من الصينيين، سواء كانوا ينتمون إلى ثقافة الهان أو من الأقليات العرقية الأخرى، شيئًا عن التيبت، لا في الماضي ولا في الحاضر. لن يعيروا انتباهًا لما يحدث في التيبت ما لم يقطنوا بالقرب من هذا المكان البعيد الذي يعد في (الجوار)، وبالمثل سيهتم بعضهم بما يحدث في التيبت إذا كان لهم أصدقاء أو أقارب هناك، ولكن لم تشمل أي من الحالتين الغالبية العظمى من مواطني الجمهورية الشعبية، وهذا يعني أن جميع التصورات الموجودة في أذهان تلك الأغلبية ستكون بمقتضى الضرورة مستعملة قديمة يجب تنقيتها من قبل بيروقراطية شاملة. إن قدرة هذه الجماعة على إنشاء رسائل معينة حول (الآخر)، والمحافظة عليها، أكبر بكثير من قدرة المستعمرين الأمريكيين أو الروس القيصريين. إن القدرة الصينية في هذا المجال متشابهة مع قدرة الصهاينة الإسرائيليين، ومن ثم لم تكن لدى الصينيين العاديين معرفة دقيقة وموضوعية عن التيبت، والأهم من ذلك أنه لم يكن لدى جنود جيش التحرير الشعبي الصيني الذين أُرسلوا إلى التيبت هذه المعرفة.

ويصل هؤلاء الجنود وقد كوَّنت اللغة الانفعالية إدراكهم بأنهم في مهمة؛ مهمة تحضيرٍ وتثقيف ترتكز إلى لغة التفوق والدونيَّة، وبهذا الخصوص فإن المعتقد الجماعي الأساسي يحاكي المعتقد الجماعي لأمثلتنا الأخرى، وقد قادت مثل هذه

اللغة إلى سيناريو قريب من الحالات الأخرى، وقناعة بأنه قُدِّر تاريخيًّا على الأدنى ثقافة أن يفسح مجالًا للمتفوقين.

الخلفية التاريخية

تقع التيبت خارج المنطقة التي يعدها الغرب تقليديًّا جزءًا من الصين، ومن المؤكد تاريخيًّا أن التيبت كانت أرضًا مستقلة من عدة قرون، لها نخبتها الحاكمة الخاصة بها، ودينها البوذي الأصلي، وكانت تلك النخبة تعترف بقوة إمبراطور الصين (وهو زميل بوذي)، وبسلطته (غالبًا من حين إلى حين)، ولكن هذا الاعتراف لم يسفر عن تدخل يومي من السلطات الصينية. كان من المأمول، على كل حال، أن يقدم الصينيون المساعدة للتيبت في مقاومة الغزو من الغرب (مثل الهند البريطانية)، والقوات الاستعمارية الأوروبية التوسعية. وكان أهالي التيبت ينظرون إلى هذه القوات (والمبشرين المسيحيين المتحالفين معهم) على أنهم تندرا (Tendra)، أو أعداء للدارما (الدين البوذي) (laird, 2006, 222)، ولتيسير هذه العلاقة احتفظ الصينيون بمندوب (آمبان Amban) مقيم في عاصمة التيبت مدينة لاسا (Lhasa)، مع مجموعة حراسة مؤلفة من 1500 جندي. وكان لهذا المندوب الصيني هيئة إدارية لا يتكلمون اللغة التيبتية، ونادرًا ما يغادرون المدينة. وعمليًّا لم يكن المفوض (آمبان) أكثر من عنصر ارتباط بين الحكومة الإمبراطورية الصينية والحكام الرسميين التيبتيين مثل الدالاي لاما، وبعبارة أخرى كان الآمبان (المفوض) يمارس مهمة السفير، وكان ذلك ترتيبًا مشابهًا لما كان موجودًا من حين لآخر بين الصين وأراضي فيتنام، وكوريا، وتايلاند، لذلك فإنه من السهل معرفة السبب في أن أهالي التيبت لم يعدُّوا هذا الترتيب تخليًا رسميًّا عن استقلالهم.

في عام 1793م حاولت حكومة تشيان لونغ الإمبراطورية في الصين تغيير هذا الترتيب؛ إذ عرضت وثيقة بعنوان (29 مادة حول إعادة تنظيم الشؤون المحلية التيبتية)، أكدت سلطة المفوض المقيم على معظم الشؤون الداخلية والخارجية

للتيبت، من بينها النظام الضريبي، والتعيينات العسكرية والدينية، والمحاكم الجنائية. وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة عكست- بلا ريب- صورة العلاقة مع التيبت الماثلة في رؤوس السلطات الصينية، فقد كانت إشارة إلى أنها لم تكن أكثر من إجراء نظري.

كانت التيبت منطقة نائية وشاسعة، وكان انتقال ما كان يدور في خلد الصينيين من مقاصد إلى حيز التطبيق مستحيلًا عمليًّا حتى بعد مئة سنة، وكان أهالي التيبت يعدون الآمبان مجرد (مفوض تخمير الشاي)، وهذا يعني أن مهمة ممثل المحكمة الصينية لم تكن أكثر من توزيع الصدقات على الأديرة البوذية (Wang and Shakya 2009, 39)، لذلك كان هذا الوضع الذي استمر طوال حكم سلالة تشينغ (1726 إلى 1911م) أحد العوامل التي ولَّدت لدى الصينيين إيمانًا بالهيمنة على التيبت.

غزا البريطانيون التيبت سعيًا إلى التوسع في تجارتهم خارج الهند، واحتلوها مؤقتًا في عام 1904م، فاعترض الصينيون، ولكنهم لم يدافعوا عن أهالي التيبت، وقد وصف الدبلوماسي البريطاني المشهور اللورد كيرزون (Curzon) العلاقة بين البلدين بأنها (وهم دستوري) (Wang and Shakya 2009, 100)، ومع ذلك، وبعد مغادرة البريطانيين للتيبت، أعاد الصينيون تأكيد مطالبتهم بالسيطرة عليها، ومرة أخرى كان المفوض المقيم يمثل هذه المطالبة رمزيًّا، وقد شجعهم على ذلك خوفهم المسوَّغ (الراسخ) من الاجتياح الغربي للتيبت. وفي الوقت ذاته، مع أن سكان التيبت محترمون ولا يمثلون أي تهديد للسفراء الصينيين العائدين، إلا أنهم ساروا قدمًا وفعلوا ما يحلو لهم.

عندما انهارت سلالة تشينغ في عام 1911م، أصبح استقلال الأمر الواقع للتيبت ناجزًا، وشهدت السنين التالية ضعفًا مستمرًّا في الدولة الصينية، وكانت باستمرار تحت رحمة الغزاة الخارجيين. وبعد 1912م لم يعد هناك وجود للمفوض المقيم في عاصمة التيبت لاسا، وأصبح الدالاي لاما الثالث عشر توبتين غياتسو (Thupten Gyatso) (1876–1933م)، الذي كان معروفًا بأنه شخص قاسٍ وعنيد، الزعيمَ

الوحيد للدولة (laird, 2006, 213). بدأ هذا الدالاي بتطوير التيبت؛ بافتتاح المصارف، والخدمة البريدية، بالإضافة إلى الاعتراف بالجيش التيبتي وفقًا للمعيار البريطاني. لقد ظن أن هذه الإصلاحات كانت ضرورية من أجل الاستقلال الدائم للدولة، ولكنها سببت توترات مُخلة باستقرار التيبت؛ إذ حين تشرع بالتطوير ستكون النتيجة أن كل ما كان سابقًا لم يعد مقبولًا. وسرعان ما حدث سجال حول ما يُعيق تقدم الأمة، وأصبح الدين والسلطة السياسية للدالاي لاما هدفًا لأصحاب النزعة التجديدية التيبتية. وفي تلك المرحلة، في العشرينيات من القرن الماضي، تباطأ الدالاي لاما بعملية الإصلاح، وبالتحديد عمد إلى تطهير الجيش من هؤلاء الضباط الذين رفضوا الدور الرئيسي للدين في شؤون الأمة السياسية.

استمر استقلال التيبت حتى العام 1950م، ولكن الصينيين لم ينسَوا أمرها، ولم يتخلوا عن مطالبتهم بالسيطرة على المنطقة ولو جزئيًّا، وقد أُعيد تأكيد هذه المطالبات بقوة بعد سيطرة الشيوعيين على الحكومة الصينية. وبعد عام واحد من تأسيس الجمهورية الشعبية (1949م) مباشرة، غزا أربعون ألف جندي من جيش التحرير الشعبي الصيني التيبت؛ «لتحرير البلاد من القوات الإمبريالية» (laird, 2006, 318)، ومن حينها أصبحت التيبت بالفعل محكومة من قبل الصين، التي تحققت مطالبتها بالسيطرة على التيبت بالاحتلال العسكري.

لأن الحزب الشيوعي الصيني لا يزال يُحكم قبضته على الصين الأصلية، بالإضافة إلى أن الحرب الكورية كانت محتدمة، فإن التيبت لم تكن تتغير بسرعة، على الرغم من الاحتلال العسكري الصيني، وبقيت الشؤون المحلية على حالها قبل الاجتياح، حتى بوجود عديد من الضباط والجنود الصينيين. وقد سمَّى الصينيون اتفاقهم مع التيبت اتفاق (بلد واحد.. نظامان مختلفان). كانت الصين هي البلد الوحيد الذي تسامح مع النظام الموروث للتيبت الآن، وأضفيت الصفة الرسمية على هذا الوضع بموجب (اتفاقية مؤلفة من 17 بندًا) أُعلنت في مايو 1951م.

وفي حين أن (النظام الإقطاعي)، كما وصف الصينيون الوضع الريفي في التيبت، ومنصب الدالاي لاما رئيسًا لحكومة التيبت، بقيا سليمين، فإن الوضع من الناحية التي تهم الصينيين قد أصبح مشوشًا؛ إذ كان الدالاي لاما الرابع عشر (الحالي)، الذي كان في العقد الثاني من عمره عندما حدث ذلك كله، يحاول إصلاح النظام الإقطاعي، ولكنه واجه مقاومة من المتمسكين بالتقاليد الذين كانوا يرون في الفلاحين مصدر ثروتهم، وقد أصبح الوضع الآن معقدًا من خلال الادعاءات الصينية بأن الفلاحين يقدمون الطعام والمواد الأخرى لدعم جيشهم المحتل. والآن بعدما تخطى الدالاي لاما سن الشباب، وبكونه حاكم الأمة، وقع بين مطالب الحزب الشيوعي الصيني والنخبة التيبتية، وقد قرر في النهاية أن يتعاون بأقصى ما يمكنه مع الصينيين؛ فقد كانوا أقوياء جدًّا، وعلى الرغم من وجود مقاومة فردية، فإن التمرد الصريح يعني إراقة دماء أكثر مما أراد المجازفة به.

وفقًا لاتفاق السبعة عشر بندًا، وافق الدالاي لاما على أن تكون التيبت جزءًا من الصين، ووافق على إدارة بكين لشؤون التيبت الخارجية، وأقرت الصين، بدورها، بالحكم الذاتي للتيبت (وسرعان ما سميت منطقة الهضبة التيبتية بمنطقة التيبت المستقلة أو TAR)، ولم تتعرض لنظامها الاجتماعي الاقتصادي، الذي كان يعتمد على القبلية، أو لنظامها الديني البوذي.

سياسيًّا؛ أسس الحزب الشيوعي الصيني لجانًا متعددة تشابه التسلسل الحكومي في الصين الأصلية، علمًا أن الصين الأصلية امتلأت، في هذه المرحلة، بالأشخاص المستَجَرِّين من الأسر المحلية الحاكمة في التيبت. ووفقًا لما لاحظه الكاتب الصيني والناشط في حقوق الإنسان وانغ ليكسيونغ (Wang Lixiong)، الذي لديه معرفة مفصلة عن التيبت الحديثة، كان هذا النظام يعادل إلى حد ما (التحالف بين شيوعيي الصين والطبقة الحاكمة في التيبت)، وقد استمر ذلك طوال الخمسينيات من القرن العشرين.

لم يطبق هذا النظام- على أي حال- على المناطق المجاورة مثل سيشوان، ويونان الصين، وقانسو، وشنغهاي، حيث كان غالبية السكان من قوم الهان، وحيث يوجد أيضًا أقلية كبيرة من أهالي التيبت. وعلاوة على ذلك فقد ضم الصينيون مناطق خام وآندو التيبتية إلى هذه المناطق المجاورة، وانتهى المطاف بخروج نصف الشعب التيبتي خارج منطقة التيبت المستقلة ذاتيًّا. جرت في هذه المناطق التحولات ذاتها الجارية في الصين: (العقيدة الجماعية القومية في 1955م، وتعيين الأفراد لمواصلة (الصراع الطبقي) ضد النخبة المحلية في عام 1956م). وقد كان هناك مقاومة شديدة لهذه الحركات بين أهالي التيبت المحليين، ومع مرور الوقت أخمد جيش التحرير الشعبي الصيني سلسلة من التمردات، فهرب قرابة 60.000 من أهالي التيبت إلى منطقة التيبت المستقلة، وفي جزء من إخماد هذه المقاومة دُمرت المواقع الدينية البوذية على نطاق واسع في كل مكان من هذه المناطق.

سببت الثورة قلقًا متزايدًا ضمن التيبت المستقلة، ومع أن الحزب الشيوعي الصيني وعد بتأجيل الإصلاحات المماثلة ستة أعوام (ابتداءً من 1956م) فإن الاحتجاجات استمرت.

لقد ارتفع مستوى حساسية النخبة في منطقة التيبت ذات الاستقلال الذاتي، فعلى سبيل المثال عندما افتتحت مدارس علمانية مجانية في منطقة التيبت المستقلة، فُسِّر ذلك على أنه تهديد للتعليم المُعتمد في الأديرة؛ وعندما كانت الحكومة الصينية تدفع أجور العمال التيبتيين العاملين على إنشاء الطرق في التيبت المستقلة، كان يفسَّر ذلك على أنه اعتداء على خدمة السخرة التقليدية المستَحقة للنخبة الريفية؛ وكان يُنظر إلى تجنيد العبيد والفلاحين في الحزب الشيوعي على أنه انتهاك للهيكل الاجتماعي التيبتي التقليدي. أدت السياسات الصينية تجاه منطقة التيبت المستقلة إلى جعل الأمور أكثر سوءًا بالنسبة إلى جهود الحزب في المنطقة؛ فمن ناحيةٍ قرر القادة في بكين التعاون مع النخبة التيبتية من أجل تحقيق السيطرة رسميًّا على التيبت، وتجنب المقاومة الكبيرة، ولكن المشكلات التي حدثت في عام 1955م و1956م صرفت كثيرًا

من الأعيان عن هذا الاتفاق. ومن جهة أخرى، مهما فعلوا في تلك المنطقة من أجل تحسين معيشة الغالبية الفقيرة فقد كان ذلك الجهد يوصف بأنه متردد (من أجل عدم إبعاد النخبة)، وهذا يعني أنهم لم يكسبوا قلوب الفقراء وعقولهم، الذين ظلوا مرتبطين بالطرائق التقليدية إلى جانبهم. ونتيجة لذلك ما برح الجميع؛ الفقراء وغيرهم على حد سواء، ينظرون إلى الصينيين على أنهم مستعمرون دخلاء، وأنهم يطبقون سياسة لا جدوى منها.

البوذية التيبتية ومسألة الهوية الثقافية

في عام 1959م حدثت ثورة كبرى في منطقة التيبت المستقلة ضد الحكم الصيني، فدخل الجيش الصيني إلى المنطقة المستقلة، وهرب الدالاي لاما إلى الهند، حيث أسس حكومة في المنفى، وتبعه في البداية 30.000 لاجئ. وقد دعمت الطبقات الشعبية ثورة 1959م، وعلى الرغم من إمكانية وجود مستفيدين من الإصلاحات الصينية المستقبلية، فإنهم ضمن نزعتهم المحلية لا يعيشون هذا المستقبل؛ إنهم يعيشون النمط التيبتي الحالي.

تعلمت السلطات الصينية درسًا من الاضطرابات التي حصلت في العام 1959م، وهو أن اتفاق السبعة عشر بندًا كان إخفاقًا؛ ومن ثم فبعد موت 86.000 تيبتيًّا تقريبًا، وبمجرد تحقيق الأمن في لاسا (حيث كان يتمركز معظم الثوار)، تبنى الحزب الشيوعي الروسي مقاربة جديدة متوافقة مع ما كان يحدث في بقية أجزاء الصين؛ وإليكم كيف وصف وانغ ليكسيونغ ما حدث:

«أرسلت فرق العمل المؤلفة من عشرات الآلاف من أفراد الجيش والفرق المدنية إلى كل قرية ومنطقة ريفية للبدء (بالإصلاحات الديمقراطية)، ولتحديد (حالة الطبقات الاجتماعية) بين أهالي التيبت إجمالًا. وكانت الخطوة الثانية هي إطلاق (العنان لشكاوى الجماهير التيبتية)، وجعلهم (يكتشفون أسباب بؤسهم)، ويطرحون الأسئلة من مثل: من يُطعم من؟ وقد تُرجم ذلك إلى جهود موحدة وطويلة الأمد

لتغيير التصورات الموجودة في أذهان الطبقات الشعبية في منطقة التيبت المستقلة، ومن ثم ليتمكنوا من التوافق مع أولئك الذين يملكون تصورات صينية رسمية.

وخلال وقت قصير نسبيًّا، أسفرت الجهود الصينية عن ظهور فئة من الفقراء التيبتيين موالية للدولة، وتابعة للحزب الشيوعي الصيني، وإن كانت محدودة، وكان لا بد من وجود منافع فعلية من إبرام هذا الاتفاق؛ وذلك من خلال استصلاح الأراضي. أُغلق 97 بالمئة من الأديرة الموجودة في منطقة التيبت المستقلة، وأُعيد توزيع ممتلكاتها من الأراضي الواسعة على من كانوا يومًا عبيدًا، فكان ذلك ضربة للدين بصورته المؤسساتية، ووفر الموارد لتحقيق التعاون مع الجماهير. ظهر من ذلك كله أن الطبقة العليا والمشاركين في الثورة الحديثة أيضًا قد خسروا ممتلكاتهم، التي أُعيد توزيعها على الفقراء الذين لا أرض لهم. وتزامنًا مع ذلك طلب الشعب التيبتي إعفاءه من ضريبة العشر الإجبارية التي كانت تدفع على نحو تقليدي للأديرة التي توقف نشاطها.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت تلك المعركة التي تخوضها الفِرَق الصينية شاقة، إذ ليس للمجتمع التيبتي تاريخ من التوتر الطبقي، فضلًا عن العنف، ذلك أن وجهة النظر الدينية التي تدعم الثقافة التيبتية ترى أن على الإنسان أن يحاول التغلب روحيًّا على آلامه الحالية من أجل الإعداد لأعماله التي تقرر مصيره في الآخرة، والمحافظة عليها، وذلك حتى يبُعث إلى حياة أفضل، وهذا يعني أن الثقافة التيبتية كانت تمتلك ميلًا قويًّا إلى الاستسلام المستوحى من الدين، فإن كان التحول الثقافي سيحدث في التيبت، فإن الدين سيتضعضع بين الجماهير».

وقد كان الهدف البعيد الأمد- من دون شك- هو تحويل هذا التأكيد الديني إلى الخطة الثورية للحزب الشيوعي الصيني.

يوجد لدى وانغ ليكسيونغ نظرية تتماشى مع هذا الاتجاه؛ فمنذ مدة طويلة والشعب التيبتي يتلقى ثقافة مفادها أن الخلاص يكمن في (المستقبل السعيد)، ويكمن مفتاح

ذلك المستقبل في تعاليم الرهبان البوذيين الذين وقَفَ الشعبُ نفسَه لهم، على ما يبدو. وقد أكد ليكسيونغ أنه «من المستحيل الإطاحة بقرون من التنسك من دون أداء دور الإله الجديد الذي قدم ليقضي على الإله القديم، معلنًا ظهور مرحلة جديدة، وتأسيس نظام جديد للثواب والعقاب»، وهذا ما حاول ماو زيدونغ (Mao Zedong) والحزب الشيوعي الصيني فعله، إذ كان ماو يسعى ليحل محل الدالاي لاما (إلهًا في أذهانهم).

لم يتبنَّ جميع الخبراء في التيبت الحديثة هذه النظرية؛ فالمؤرخ والأستاذ التيبتي سيرنغ شاكيا تبنى قضية مضمونها أن الشعب التيبتي قد خُدع بلعبة الطعم والتحول الثوري (الوعد والوعيد)، وبهذه الطريقة «أصبحوا مشاركين فاعلين في تدمير ثقافتهم»، بل إنه يؤكد في الواقع أن هؤلاء الذين تعاونوا مع الصينيين في أواخر الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين قد أُجبروا على ذلك تحت ضغط الحزب الشيوعي الصيني؛ (إذ كانوا حرابًا في ظهورهم)، وهكذا وقع الفرد بين خيارين: إما التعاون مع برنامج الحزب أو العقوبة. ومن جهة أخرى فقد اعترف شاكيا بأن بعض أهل التيبت، كما حدث في باقي أجزاء الصين، قد أشادوا بماو (ليصل إلى مستوى الإله)، مُزيحًا بوذا ومستعيضًا عنه (بالأشعة البراقة للرئيس)، فقد استسلم، بعض الفلاحين التيبتيين على الأقل، للحماس الجنوني الناتج عن الحزب، الذي عُزِّز طقوسيًّا بأداته الدعائية».

مهما كان التفسير الذي يؤثره الفرد، فقد عملت قيادة الحزب الشيوعي الصيني بجد منذ العام 1960م حتى العام 1966م، وتمكنت من إنشاء قاعدة شيوعية محدودة بين الشعب. كان هناك بدايات لتحول نفسية الفرد من نموذج إدراكي إلى آخر، ومن ثم ففي عام 1966م، عندما تخطت الثورة الثقافية الصين، ومن ضمنها التيبت، كان هناك دعم كاف مفعم بالحماس لجعل الثورة الثقافية تبدو مثل الثورة الشعبية في العام 1959م مع قلب الأهداف.

ما حدث بعد ذلك هو أن أهل التيبت التقليديين وجدوا صعوبة في مناقشة تفجر الثورة الثقافية، إذ شهدت الثورة مشاركة الفلاحين التيبتيين بفاعلية في «تدمير المعابد التي كانت مقدسة لديهم وتسويتها بالأرض»، ومن جهة أخرى سُجن في ذلك الوقت مئات الآلاف من أهالي التيبت، ومات منهم نحو 173.000 في السجون، وفي معسكرات العمل، وكانوا -وفق تعبير توماس ليرد- ممن رفضوا (إكراههم على الاندماج)، ومع ذلك فقد شارك عدد كبير من التيبتيين في تدمير رموز ثقافتهم الخاصة. وقد كتب البانتشين لاما، وهو ثاني أعلى مرتبة لاما بعد الدالاي لاما، واصفًا تلك السنين بما يأتي: «عندما تزول اللغة القومية، ويختفي الزي القومي والعادات القومية، وأي خصائص قومية مهمة أخرى، فإن القومية بحد ذاتها سوف تزول؛ وبعبارة أخرى فإنها تتحول إلى قومية أخرى». كان ذلك بالتأكيد هدف الثورة الثقافية في التيبت؛ وهو توجيه البلد باتجاه الإبادة الثقافية، أو ربما- وبدقة أكثر في هذه الحالة- إلى الانتحار الثقافي.

كانت الثورة الثقافية دراسة حالة فريدة للقوة المدمرة للمعتقد الجماعي؛ فلنأخذ السكان، وهم في هذه الحالة فئة من الشباب من الهان الصينيين، بالإضافة إلى المجندين من الأقليات العرقية، والنهوض بهم من خلال سباق الأجيال نحو إيديولوجيا خاصة ونموذج خاص من المفاهيم. في مرحلة معينة نجد نسبة كبيرة من هؤلاء السكان (وإن لم يكن كلهم) أكثر استعدادًا للتصرف بعنف تماشيًا مع رسالة خاصة معينة. في الحقيقة، يمكن أن يبادروا بالعمل من أجل النقاء الإيديولوجي، أو دفاعًا عن وجهة نظرهم العالمية، من دون أي تعليمات من السلطة؛ ففي حالة الثورة الثقافية الصينية، هناك اندماج بين الفعل الذاتي للذين تشربوا الفكر الجديد والتشجيع من السلطات العليا.

في عام 1969م ابتكرت الحكومة الصينية في التيبت نظام البلديات الشعبية؛ الذي يعني أن الأراضي المُعاد توزيعها التي أصبحت جزءًا كبيرًا من الفائدة المادية التي حصل عليها الفلاحون من تدمير الأديرة، والتي كانت مرافقة (للصراع الطبقي)،

قد أُخذت منهم من خلال عملية إنشاء المزارع الجماعية، وكانت النتيجة ثورة مسلحة في التيبت في العام ذاته. كان ذلك الأمر مُوجَّهًا اقتصاديًّا، ولم يكن أداء عمل ضد التدمير الثقافي الذي كان نتيجة لأحداث عام 1966م واحدًا من أهدافها. وبالتأكيد أخفقت هذه الثورة.

استمرت عمليات الثورة الثقافية في التيبت حتى نهاية السبعينيات من القرن العشرين، وقد توفي ماو في العام 1976م، وأصبح دينج شياو بينج الزعيم الأعلى للصين في العام 1978م، وبحلول 1980م أُخمدت الثورة الثقافية، وانتهى برنامج الكومبونات الشعبية، وبُنيت الإستراتيجية الجديدة على أساس الادعاء بأن السبيل نحو الاستقرار هو (التطوير). وكما أوضح وانغ ليكسيونغ، تعتقد بكين أنه «ما دام أن الاقتصاد في تطور، ومستوى المعيشة في تحسن، فسيشعر الشعب بالاستقرار والسعادة، وفي تلك الأثناء ستختفي تدريجيًّا الصراعات حول القومية». هناك اختلاف في (نظرية البطن الممتلئة الإمبريالية)، ويمكن ألا يكون هناك شك بأن الأمور تتحسن ماديًّا بالفعل في منطقة التيبت المستقلة خلال عهد دينج.

ومع ذلك، لم يكن التحول عن الراديكالية الإيديولوجية للثورة الثقافية سهلًا، إذ استمرت شخصيات الهان الصينية بالعمل في التيبت أربعة عشر عامًا، مُتَّبعة ما تمليه عليهم الإيديولوجيا الثورية، وقد اجتذبوا عددًا كبيرًا من مواطني التيبت الذين صُممت حياتهم المهنية وفقًا لخطوط العمل ذاتها. وأخبرتهم السلطات في بكين أن كل ذلك كان (خطأ). قاومت هذه الشخصيات التغيير بشدة، وكان أهالي التيبت العاديون مقتنعين بشدة بأنهم بين يدي نظام مزاجي ومتقلب. وأما بالنسبة إلى الفلاحين التيبتيين، فقد شرح أحد الزعماء القرويين موقفهم (في عام 1980م تقريبًا) كالآتي: «لا يريد أحد أن يعمل مجددًا لدى النبلاء القدامى من دون مقابل، بل يريدون أن يرحل الصينيون ويعود الدالاي لاما... جميع النبلاء الجدد هم صينيون، وكانوا أكثر قسوة من النبلاء القدامى»، ومن ثم فعلى الرغم من الابتعاد عن الراديكالية الإيديولوجية، كان هناك اضطرابات متجددة عام 1987م، عكست

قلق أصحاب النزعة التقليدية من التغير الاجتماعي الحضاري المذهل، والتوترات المستمرة بين الحزب الشيوعي الصيني والحركة الرهبانية، التي كانت تحاول إعادة إثبات نفسها. وقد تزامنت المشكلات مع ظهور الدالاي لاما أمام إحدى لجان الكونغرس الأمريكي في العام 1987م. ونتيجة لذلك فرضت الأحكام العرفية عام 1989م مدةً وجيزة، وبعد ذلك استمر الاستقرار في التيبت نسبيًّا.

أُعلنت مجموعة من التوجيهات لمنطقة التيبت المستقلة، لا يزال بعضها فعالًا حتى اليوم، وتضمنت ما يأتي:

1. يجب أن تكون التيبت مستقلة.
2. يجب أن تتوافق السياسات الاقتصادية لمنطقة التيبت المستقلة مع الأوضاع المحلية والأهداف العملية بدلًا من أن تُصاغ أيديولوجيًّا (وهذا هو الإجراء الذي أسفر عن رفع مستوى المعيشة في منطقة التيبت).
3. يجب أن يحل أفراد تيبتيون عرقيون محل الأفراد الصينيين الهانيين (على الرغم من أن تدفق الصينيين العرقي لدوافع اقتصادية باتجاه التيبت قد استمر بخُطًا سريعة).
4. يجب ترسيخ الثقافة التيبتية.

ركز البند الرابع على استخدام اللغة التيبتية في جميع الوثائق الرسمية والخطابات، وفي المدارس وأماكن التوظيف، ولكن تبين أنه من الصعب تحقيق هذا الأمر؛ لأن معظم التيبتيين المثقفين الذين يعدُّهم الحزب الشيوعي الصيني جديرين بالثقة يتكلمون اللغة الصينية المندرينية أكثر من التيبتية. على الرغم من غاية الإعلان، فقد تواصل التعليم الحضري باللغة الصينية المندرينية (التي كان يفضلها معظم سكان المدينة لأولادهم؛ وذلك لأسباب اقتصادية)، وكانت جميع المقررات الدراسية في الجامعة بلغة الماندرين أيضًا ما عدا مقررات الأدب التيبتي، ومع ذلك كانت اللغة التيبتية تستخدم الآن في المدارس الريفية، وقد تسبب ذلك في تقسيم البلد

ثقافيًّا، فغالبًا ما يذهب أطفال التيبت الريفية إلى الأديرة من أجل التعليم، في حين تصبح النخبة الحضرية مثقفة- ظاهريًّا على الأقل- ضمن نمط الحياة الصيني.

وهكذا، هُمشت اللغة التيبتية على الرغم من التعهد الكلامي للحزب الشيوعي الصيني بالحفاظ عليها، وقد اقتضى (تعزيز الثقافة التيبتية) أيضًا (احترام الممارسات الشعبية الدينية المعتادة)، وكان ذلك مهمًّا جدًّا، ووفقًا لما كتب البانتشين لاما في عام 1962م «فقد أوشكت البوذية التيبتية على التلاشي فعليًّا»؛ وكان لا بد من تجنب هذا المصير إذ يجب أن يكون الدين البوذي التيبتي عنصرًا جوهريًّا.

أهي إستراتيجية إبادة ثقافية؟

إن استمرار (الممارسات الدينية المعتادة)، وهي الجانب المؤثر في الثقافة التيبتية، من شأنه أن يُبطئ أي تآكل أو تغيير ثقافي، وفي الحقيقة فقد تزايد عدد الرهبان والراهبات البوذيين ليصل إلى نحو 46.000 بحلول العام 1994م، وأُعيد بناء بعض المعابد والأديرة (وغالبًا ما تحولت إلى مواقع سياحية)، أو أُشيدت أديرة ومعابد جديدة، وعلى أي حال كانت المسألة الثقافية- كما تبين- بعيدة عن الاستقرار.

إن العامل الأساسي هنا هو أن هؤلاء المشرفين على (تعزيز الثقافة التيبتية) كانوا- بحكم الضرورة- من سكان التيبت الموالين للحزب الشيوعي الصيني. منذ الخمسينيات من القرن العشرين، بدأ الصينيون بتأسيس نظام تعليمي بديل عن نظام التعليم الرهباني التقليدي في التيبت، وقد نتج عن ذلك صدع ضمن الأجيال وفيما بينها؛ فالذين تعلموا في المدارس المدعومة من الحكومة الصينية، أو في الصين نفسها، يعدُّون أكثر (حداثة) من الذين تلقوا تعليمهم في الأديرة، والذين حافظوا على النظرة التقليدية. وقد كان هؤلاء الآنف ذكرهم يُختارون ليتبوؤوا المراكز المهمة في TAR، إذًا فمع أن أهالي التيبت كانوا يتبوؤون المناصب المهمة، وكان غالبيتهم ممثلين للأجهزة في منطقة التيبت المستقلة، فقد كانوا كذلك لأنهم يعكسون الأهداف المشتركة للثقافة المحلية، من بين أمور أخرى، وليس لأنهم سوف

يعكسون وجهات النظر التقليدية، ويتضمن ذلك الإشراف على (الممارسات الشعبية الدينية المعتادة).

لقد علم الشيوعيون التيبتيون أن الرهبان والراهبات سوف يقودون المقاومة الوطنية، وكانت مهمتهم عدم السماح باستمرار ذلك وفقًا للأوضاع (التحررية) (ما بعد الثورة الثقافية)، وبعبارة أخرى كانت مهمتهم الإشراف على التعبير الديني والثقافي التيبتي عن الذات، ولن يكون من الصعب تحقيق ذلك ظاهريًّا:

في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، نُفيت جميع القيادات الدينية للتيبت تقريبًا، وأصبح من غير الممكن تعيين شخصيات قيادية جديدة، مثل البانتشين لاما، ضمن التيبت، من دون موافقة الحزب الشيوعي الصيني.

ومن ثم فعلى الرغم من إعادة بناء بعض الأديرة، وتشجيع الفنون التقليدية، لم يكن يسمح بأي إشارة إلى القومية التيبتية، أو إلى الدالاي لاما، أو إلى العلاقة التقليدية بين البوذية التيبتية والفكر السياسي، أو إلى حكومة تيبتية، أو إلى استقلال ذاتي؛ وكان ذلك- بلا ريب- اعترافًا صريحًا من قبل بكين بأن البوذية التيبتية، وهي جوهر الثقافة التيبتية، متعلقة بالقومية التيبتية. ومن جهة نظر قيادة الحزب، كان ذلك يميل إلى إبراز المخاوف من أن الاستقلال الثقافي يمكن أن يؤدي حتمًا إلى المطالبة بالاستقلال.

وفي نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، كانت رقابة الشرطة على مستوى عال في التيبت، وكان المراقبون يتربصون (الأخطاء) التي تُظهر النزعة القومية للاستقلال الثقافي، وبالأخص الديني، ويعاقبون مرتكبيها.

لقد كان مصير الكاتبة التيبتية ووسر (Woeser)، كما وصفه وانغ وشاكيا Wang & Shakya في كتاب **الصراع من أجل التيبت** The Struggle for Tibet، مثالًا جيدًا عن هذا الوضع. كانت ووسر رئيسة تحرير (الأدب التيبتي)؛ الصحيفة الرسمية لجمعية الأدب التيبتي في منطقة التيبت المستقلة. وفي عام 2003م كتبت ووسر، وأسهمت في

إعداد مقتطفات أدبية نثرية (كُتبت بالصينية) بعنوان: **ملاحظات حول التيبت**، وقد لقي هذا الكتاب رواجًا كبيرًا في أنحاء التيبت والصين. وبطريقة ما لم ينتبه المراقبون للكتاب إلا بعد النشر فقط، وعقب ذلك اتُّهمت ووسر بارتكاب (أخطاء سياسية خطرة)، وطُلب من جمعية الأدب في منطقة التيبت المستقلة، التي كانت ووسر عضوًا فيها، أن (تفحص) الكتاب لإعطائه الموافقة السياسية، وفيما يأتي بعض مما تضمنه الكتاب:

1. «بالغ العمل بالحديث عن دور الدين الإيجابي في الحياة الاجتماعية وجمَّله».
2. أصدر العمل أحكامًا قيميَّة خاطئة، ونأى بنفسه عن المبادئ السياسية الصحيحة.
3. «أشاد العمل بالدالاي لاما الرابع عشر... وشجع على تبجيل الدين، والإيمان به».

وكأن القضية تسعى للاقتداء عكسيًّا بقضية غاليليو، فقد طُلب من ووسر (التي دافعت عن الدين) أن تخضع لمرحلة من (النقد الذاتي) متبوعة باستجوابات متكررة تقود إلى الاعتراف الإجباري. وللهروب من هذه المحنة، ذهبت ووسر إلى المنفى في نهاية العام 2003م. وكما في قضية غاليليو، فإن معاملة ووسر كانت بمنزلة تحذير لسكان التيبت الأصليين الآخرين من أجل الموافقة على قيادة الحزب الشيوعي الصيني، أو- كما عبر وانغ ليكسيونغ عن الأمر- «إن النظام الذي يغذي الثقافة هو أيضًا النظام الذي يهذبها كليًّا. الخوف من النظام يحول دون مقاومته». وتابع مفسرًا: «لن يتساهل النظام، الذي يسيطر على المساحة الثقافية للتيبت سيطرة شبه كاملة تقريبًا، مع المنشقين عنه، وكان لا بد من ظهور سوق ثقافية مستقلة- جزئيًّا على الأقل- عن النظام الرسمي، في الإقليم التيبتي».

فهمت السلطات أن (الصمت) الناتج عما سبق هو دليل على الانصياع والاستقرار في التيبت، ومن ثم فقد مضى الحزب الشيوعي الصيني في عملية إعادة صياغة

الثقافة التيبتية وفقًا لتصوراته الخاصة؛ وهي أن الثقافة التيبتية تعني ما يقوله الحزب عنها. وفي خضم هذه العملية، كان التيبتيون المحليون ماضون ببطء، ولكن بثبات، في عملية التحول المرادفة للإبادة الثقافية.

يمكننا أيضًا حمل هذه الصورة إلى الصين نفسها؛ إذ يعد الشعب الصيني التيبت جزءًا من الصين الأصلية (الداخلية)، ويعتقد الصينيون أنه بينما كانت التيبت مكانًا بدائيًّا وغير متمدن قبل اندماجها في الصين، فهي الآن إقليم متحضر لديه حرية دينية تدعم البوذية الروحية الموروثة الجديرة بالإعجاب. وقد رُسمت هذه الصورة من قبل الإعلام الصيني والمتحدثين باسم الحكومة الصينية. لم يكن لدى الشعب الصيني طريقة لاختبار هذه الادعاءات بصورة مستقلة أكثر مما كان لدى الهنود في المناطق الأمريكية الهندية. ربما تكون الصورة المرسومة في أذهانهم مشوهة حقًّا، ولكن نزعتهم المحلية تقبل بأن تكون الدعاية رديفًا للحقيقة، وفقًا للأوضاع الطبيعية.

بالعودة إلى التيبت، فإن سياسة الصين بالسيطرة المباشرة على البوذية التيبتية قطعت أساس الفرادة الروحية التي ينسبها عديد من الصينيين إلى البوذية؛ وذلك من خلال إفساد القيادة الدينية المستقرة في التيبت. إن القيادة عادة مقترنة بالأديرة، والأديرة هي الوسيط بين الفلسفة البوذية حول ضبط الذات والتقليل من قيمة العالم المادي من جهة، وبين الخرافات والتوجه العلماني (الدنيوي) للمعتقد الشعبي من جهة أخرى، فإذا كانت القيادة زائفة، فستفقد الأديرة قدرتها على توجيه عامة المؤمنين نحو ضبط الذات الأخلاقي.

عُرضت سابقة من هذا القبيل بعد ثورة 1959م في التيبت مباشرة، ففي ذلك الوقت أُوقفت ممارسة البوذية التيبتية التقليدية، وأُغلقت المعاهد الدينية، ومن ضمنها أغلب المراكز التعليمية البوذية التي يزيد عددها على 600 مركز، وأُجبر الرهبان والراهبات على ممارسة الحياة العادية، واستمر ذلك خلال الثورة الثقافية. وبمرور الوقت انتهت هذه المرحلة، وبحلول الثمانينيات من القرن العشرين

لم يضطرب الهيكل التسلسلي للدين فقط (بحكم نفي عديد من القيادات الدينية التقليدية)، ولكن الجيل التيبتي بأكمله تربى على تعاليم الحزب الشيوعي الصيني المنافية للدين.

إذًا، على الرغم من انتعاش الدين بعد وفاة ماو فإنه لم يكن كاملًا، وحتى ضمن مرحلة الانفراج ما بعد الثورة الثقافية، مُنع أي عمل يعيد إحياء الرهبنة على نطاق واسع، وأي اتصال رسمي متبادل بين الأديرة غير مسموح به. وفي العام 2003م، كان هناك 93 مركزًا تعليميًّا بوذيًّا في التيبت، 84 منها لم تُسجل في الدولة، ومن ثم عدَّت مراكز غير قانونية.

استمر الحزب الشيوعي الصيني أساسًا في مرحلة ما بعد الثورة الثقافية في تدمير الأساس الفلسفي واللاهوتي للبوذية التيبتية، وإن نجحوا في ذلك، فكل ما سوف يُترك للدين هو الخرافات والممارسات الدينية الشكلية، وقد ساور الحزب الشيوعي الصيني الأمل في أن تتلاشى هذه البقايا بفضل تقدم الإصلاحات المادية.

في العام 1998م، وخلال زيارة الرئيس بيل كلينتون إلى الصين، أوضح الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني جيانغ زيمين (Jiang Zemin) الدور الواهن الذي تُرك للدين في كل من التيبت والصين، فقد قال: «لن نسمح للدين أن يُستخدم لمواجهة قيادة الحزب والنظام الاجتماعي» (Wang and Shakya, 2009, 176). لن يُسمح للهيكل التسلسلي الديني التيبتي أن يتحدى التسلسل الحزبي في الحصول على ولاء الشعب التيبتي، ومن ثم انتَخَب المسؤولون الشيوعيون القادةَ والمسؤولين البوذيين في التيبت واعتمدوهم، وقد كانوا ممن طُلب منهم أن يدرسوا في الأكاديميات البوذية الحكومية المرخَّصة. وباتباع هذه الإستراتيجية لم يعد هناك حاجة إلى منع الدين البوذي كله كما حاول أن يفعل ماو والحراس الحمر للثورة الثقافية، ومن الممكن تدميره ببساطة؛ لكونه نظامًا مستقلًّا بقيادة مستقلة، وبذلك يمكن تحويله إلى ظل غير مؤذ لما كان عليه سابقًا، ومن الممكن إعادة تأسيسه ليصبح آمنًا ومتوافقًا مع نظرة الحزب الشيوعي الصيني العالمية.

كان برنامج تجديد المعتقد الجماعي التيبتي ناجحًا، فعلى سبيل المثال، ووفقًا لتسيرينغ شاكيا، فإن هناك فجوة ثقافية متزايدة بين التيبتيين المحليين الذين شعروا بتأثير الصين لأجيال متكررة، وبين هؤلاء الذين استقروا في المنفى؛ فحين يلتقي هؤلاء الذين نشؤوا في مجتمعات مختلفة فسيجدون مشكلة في التواصل معًا، ويقول شاكيا: إن هؤلاء المنفيين «ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ممثلون حقيقيون للتيبتيين، وأن التيبتيين الموجودين داخل (الصين) هم ضحايا مُستضعفة غير فاعلة».

ينتج عن ذلك أحيانًا مأساة شخصية حقيقية؛ فعندما ذهبت دادون (Dadon) إلى المنفى في الهند عام 1955م، وهي أشهر مغنية تيبتية، وجدت نفسها عمليًّا غير معروفة في هذا المجتمع، وأن الجمهور قد انصرف عن أغانيها الشعبية المعاصرة التي تمثل (نمط الأغاني الصينية)، وبذلك فبعد إبعادها من قبَل النظام الصيني في بلدها، قدمت دادون إلى الهند لتجد نفسها منسلخة أكثر عن مجتمع المنفى التيبتي (Wang and Shakya, 2009, 215).

تحديث الحكاية؛ جعل القصة مجارية للعصر

مهما كانت جهود الاندماج في الصين كبيرة، فإنها غير مكتملة، ذلك أن هذا النوع من عمليات التثقيف في واقع الأمر يحتاج إلى أجيال عديدة لتحقيقه، ولم يكن التيبتيون هم الأقلية العرقية الوحيدة التي عانت هذا التحول. حتى هذا التاريخ، نجحت شعوب الصين المتعددة الأصول في الاستمرار في فرض مستوى معين من القوة النابذة لمواجهة قوة إيديولوجية الحزب الشيوعي الصيني وثقافة قومية الهان (Han) المركزية الجاذبة. ووفقًا لرأي تسيرنغ شاكيا، فإن ذلك هو نتيجة لمحاولة الصين (إنشاء أمة خارج الإمبراطورية)، ولهذا السبب كان يوجد في الصين الشيوعية «قرابة 24 مؤسسة إقليمية أو وزارية (ضمن) نظام بيروقراطي يمثل الأدوار (اللاانفصالية)، التي تمثل مجموعة كبيرة تملك قدرًا كبيرًا من السلطة، والموظفين، والثروات». وبمرور الوقت، وبالتحديد تحت قيادة ماو ومن بعده دينج،

كانت البيروقراطية المتعددة الأوجه مقيدة بعملية اتخاذ القرار المركزية. وعلى أي حال، أصبحت عملية اتخاذ القرار بعد عصر دينج ميالة إلى الرجوع إلى المستويات البيروقراطية بحد ذاتها.

كان ذلك هو الواقع البيروقراطي في مارس 2008م، عندما اندلعت الاضطرابات ثانية في منطقة التيبت المستقلة والأقاليم المجاورة بوجود عدد كبير من سكان التيبت. في 10 مارس، خرج الرهبان والراهبات في مظاهرات سلمية في العاصمة لاسا إحياء لذكرى الثورة التيبتية عام 1959م، وأثاروا مطلب إطلاق سراح الرهبان والراهبات الذين لا تزال السلطات تحتجزهم في السجن. حين لم تكن المظاهرات عنيفة في البداية، لم يكن لدى الحكومة أي رد تجاهها، ولكن تصاعدت الأمور سريعًا، وامتدت إلى ما وراء العاصمة، وسرعان ما تحولت التوترات التي كانت قائمة بين التيبتيين العرقيين والصينيين الهان الذين تزايدت أعدادهم بصورة سريعة في مراكز المدن التيبتية، إلى عنيفة. يبدو أنه من الصواب أن نعدَّ هذه الأحداث- جزئيًّا على الأقل- قد انبثقت عن المشكلات الأزلية حول التمييز الاجتماعي والاقتصادي الذي ادَّعى أهالي التيبت الأصليون بوجوده، وتوازى ذلك مع الشكاوى حول التضخم المالي، وارتفاع نسبة البطالة بين الشباب في المدن التيبتية. وفقًا لهذه الأوضاع، كان من الصعب على التيبتيين اتباع نصيحة تشو إنلاي التي قدمها لهم في الخمسينيات من القرن العشرين؛ وهي: «الاقتداء بالمانشو، والاندماج في الصينيين»، من غير أن يعني ذلك أن عددًا كبيرًا من التيبتيين لم يكن يرغب في اتباع هذه النصيحة. وإذا ما أخذ بالحسبان عدد الأجيال الذين ترعرعوا في ظل النظام الصيني، ربما يكون من الخطأ افتراض أن احتجاجات هذه الأجيال كانت بشأن (النزعة الانفصالية) أو القومية التيبتية، بل من الممكن أن تكون هذه الاحتجاجات هي للمطالبة بالعدالة ضمن النظام نفسه، أو- كما عبرت عنها شاكيا- «المقاومة للحصول على حقهم في أن يكون لهم دور في اتخاذ القرار».

من الواضح أن البيروقراطية الصينية لم تكن مستعدة ولا حتى قادرة على توفير هذه العدالة، ولم يكن الشعبان متمازجَين- حتى هذا التاريخ على الأقل- ليتجنبوا التنافس العرقي والكراهية، وبعبارة أخرى بقيت النزعة الفطرية المحلية لهذين الشعبيين منفصلة. بالإضافة إلى أن معظم الصينيين الهان كانوا من أصحاب الرأي (المتكوِّن ضمن بيئة مغلقة) ومفاده أن التيبتيين كانوا يسيرون من أحسن إلى الأحسن يومًا بعد يوم. ادَّعى الباحث الصيني (ماليهوا) العالم بأمور التيبت، أن التحسن في مستوى معيشة التيبتيين لم يكن مجرد دعاية أطلقها الحزب الشيوعي الصيني، بل هو واقعي تمامًا (Laird 2006, 350).

إذًا، فإن العنف التيبتي- في نظر عديد من الصينيين- يجب أن يكون موجهًا إلى أمور غير الأمور الاقتصادية؛ يجب أن تكون نزعة انفصالية جامحة، ضربًا من نكران الجميل أو عض اليد التي تطعمك. لقد كان التفسير الرسمي المتأخر الذي تبنته بيروقراطية الحزب الشيوعي الصيني في بكين، ونُشر مرارًا في أنحاء الصين الأصلية، وحتى على وسائل الإعلام الناطقة باللغة الصينية في المهجر، هو أن التخطيط لأحداث 2008م كان من قبل المنفيين بقيادة الدالاي لاما، وتنفيذها كان من قبل الحلفاء (الانفصاليين) في التيبت. وجهت هذه القصة وعكست الرأي الشعبي في الصين وآراء الصينيين فيما وراء البحار، على الرغم من أن السلطات الصينية تبدو غير قادرة على إنتاج أدلة مباشرة داعمة. ولتجميل القدر- كما يقول المثل- فقد أكدت بكين أيضًا أن العنف كان بغرض إرباك الصين في الوقت الذي كانت فيه على وشك استضافة ألعاب الأولمبياد الصيفية.

وفي ردة فعل تجاه كل ذلك، تصرف صانعو القرار المحليون في البيروقراطيات اللاانفصالية بطريقة شكلية، ومن أجل ذلك أعيد إلى الأذهان مظاهرات العام 2008م التي أخمدها الجنود الهانيون بقسوة، وكانت تصرفهم بهذه القسوة الكبيرة لأنهم حملوا اعتقادًا سابقًا بأنهم يقاومون النزعة الانفصالية، وعندما استقرت الأمور بدأ هجوم ثقافي جديد. وقد مُنعت بصورة إفرادية العادات والتقاليد؛ مثل

obeikandi.com

سباق الخيل، والعطلات المحلية، وحتى اللباس التقليدي، وعُدَّ جميع الرهبان والراهبات البوذيين القاطنين في منطقة التيبت المستقلة عملاء محتملين وجواسيس للدالاي لاما.

وفقًا لوانغ ليكسيونغ، فقد «ولَّدت ردة الفعل القاسية هذه التي صدرت عن البيروقراطيات المناهضة للانفصال، شعورًا انفصاليًّا بين التيبتيين» (Wang and Shakya, 2009, 237)، ومن ثم فعندما بدأت بالفعل مظاهرات عام 2008م احتجاجًا على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، عاملها البيروقراطيون الذين بُني تفكيرهم ضمن صورة نمطية حول الوضع التيبتي على أنها حركة انفصالية، فأسفر ذلك عن نبوءة تحقيق الذات، ودفعت ردة الفعل هذه، التي تشبه منعكس نفضة الركبة، بعضًا من المحتجين على الأقل إلى الاعتقاد بأن الحزب الشيوعي الصيني لا يمكن أن يحل ما رأوه تمييزًا عنصريًّا، وبدؤوا بإعادة بحث هدف الاستقلال، الذي لم يكن من البداية ضمن برامجهم، وهذا ما حدث عندما لم يستطع الشعب (في هذه الحالة الشعب الصيني) كسر قيود بيئاتهم الإعلامية المغلقة، إذ إن البوذية التيبتية، داخل التيبت الخاضعة للسيطرة الصينية، قد تحولت على ما يبدو إلى سلاح بيد الحزب الشيوعي الصيني. وصف توماس ليرد هذه النزعة بأنها محاولة «لإبادة فلسفة (البوذية) في التيبت» (Laird 2006, 344). مما لا شك فيه أن ذلك هو الهدف طويل الأمد، ولكن حتى الآن كان ما يحدث هو التقليل من قيمة الدين إلى الحد الأدنى، ليكون بيئة انتقالية في مراحل الانتقال إلى المستقبل الشيوعي الملحد. هذا ما وصفته توجيهات الحزب الشيوعي الصيني، التي صيغت في العام 1983م، بأنه (الذبول الطبيعي للدين)، وهكذا فما تبقى من الدين، الذي كوَّن جوهر الثقافة التيبتية، قُدر له أن يُستخدم لتمهيد الطريق لفناء تلك الثقافة.

الخلاصة

على الرغم من أن الحزب الشيوعي لم يصف الوضع بتلك الطريقة، فقد كان من الواضح أن الهدف الأساس لسياستهم في التيبت هو إبادة الثقافة التيبتية التقليدية. كيف يمكن بغير ذلك أن يُقاد التيبتيون أخيرًا إلى الاندماج في الصينيين؟ يمكن أن يكون نوع من التثاقف الراديكالي التقريبي ممكنًا من خلال السيطرة الكافية على البيئة الإعلامية، وتوافر الوقت الكافي لإنجاز هذه العملية، ولكن الصينيين هم نتاج نزعتهم الفطرية المحلية التي أنتجت إيديولوجيا (تناسب الجميع)، فتصوراتهم حول التيبت ترتبط بالاشتباه بوجود مؤامرات يُعِدُّها الأجانب والخصوم المنفيون، فكانت سياستهم معتمدة اعتمادًا مُفرطًا على العقاب، ومن ثم فهم يحاولون دائمًا شق طريقهم من خلال إظهار استياء يبقي الإحساس بـ(الغيرية) حيًّا، وهو ما يريدون أن يتخلى عنه التيبتيون.

في الأمثلة الأخرى، وافقنا على أن مرتكبي الإبادة الثقافية كان لديهم دائمًا غايات بديلة يلجؤون إليها، وجميعهم في النهاية كانوا مستعدين للتفكير مليًّا إما في الإبادة الجسدية، أو الترحيل الجماعي، أو وضعهم في أحياء الأقليات (الغيتو)، لكن يبدو وكأن الصينيين لم يفكروا في هذه الخيارات بالنسبة إلى التيبت، إذ كان هدفهم هو الاندماج، وقد سعوا نحو الإبادة الثقافية لأنها بدت وكأنها خطوة ضرورية في ذلك الاتجاه.

وأخيرًا، فإن جوهر مؤسسة الثقافة التيبتية التقليدية، وهو البوذية التيبتية الأصلية، مع انتقال الدارمية على مرِّ الأجيال، قد حُوِّل إلى الهند ونيبال، وهناك أُنشئت الأديرة وأديرة الراهبات، وظهر رهبان وراهبات جدد، وولد عديد منهم في المنفى، وحافظوا على الدين. إضافة إلى ذلك، ظهر عدد متزايد من المتدينين غير التيبتيين، ومن عجائب الأقدار أن ما كان لعدة قرون مجرد ممارسات بوذية فرعية في الدول المعزولة النائية اكتسب الآن مكانة عالمية، ويعود الفضل في ذلك إلى ممارسات الحزب الشيوعي الصيني التدميرية.